مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 26 عدد: 7 (رت 69) السنة: 2022

من تصنيف الأديان إلى التجربة الدينية:

دراسة في جهود محمد خليفة حسن في درس الظاهرة الدينية

From the Classification of Religions to the Religious Experience:
A Study in Mohammed Khalifa Hassan's Efforts to study the religious Phenomenon

بدران بن لحسن[1]
مركز ابن خلدون/ جامعة قطر
bbenlahcene@qu.edu.qa
إبراهيم محمد زين
كلية الدراسات الإسلامية/ جامعة حمد بن خليفة
izain@hbku.edu.qa

تاريخ الوصول 2022/06/21 القبول 2022/10/17 النشر على الخط 2022/11/15
Received 21/06/2022 Accepted 17/10/2022 Published online 15/11/2022

ملخص:

سعت هذه الورقة إلى بحث الجهد العلمي الذي قام به الدكتور محمد خليفة حسن في درس الظاهرة الدينية، باعتماده على تصنيف الأديان، واستكماله بدرس التجربة الدينية، مستعملة في ذلك منهج تحليل محتويات نصوص كتب محمد خليفة حسن ذات الصلة بموضوع البحث.

وتوصلت الدراسة إلى أن الدكتور محمد خليفة حسن قد وضع تصنيف الأديان شرطا منهجيا لازما لدراسة التجربة الدينية. وقد طبق هذا الشرط المنهجي، في دراسته للتجربة الدينية في الاسلام. وبخاصة أن الإسلام لم تتم دراسته دراسة موضوعية من قبل دارسي الأديان، بسبب الخلفيات الاستشراقية والتحكمات الدينية، التي هيمنت على حقل تاريخ الأديان في العصر الحديث. كما توصلت الدراسة إلى أن من مبتكرات الدكتور محمد خليفة حسن، في مجال درس الظاهرة الدينية، هو جعله تصنيف الأديان مقدمة لازمة وشرطا منهجيا لدرس التجربة الدينية. وقد أبدع في درس التجربة الدينية في الإسلام، عن طريق النظر في حديث جبريل عليه السلام، واستخلاص ثلاث مراحل لها، ومن تلك المراحل بيّن خصائص كل مرحلة على حدة، والترابط بين تلك المراحل.

الكلمات المفتاحية: (تصنيف الأديان، التجربة الدينية، محمد خليفة حسن، مراحل التجربة، خصائص التجربة)

Abstract:

This paper examines the efforts of Dr. Muhammad Khalifa Hassan in studying the religious phenomenon, using the classification of religions and the religious experience. To achieve its objectives, this paper undertakes content analysis relying on his relevant books.

The finds that Dr. Muhammad Khalifa Hassan had set the classification of religions as a necessary methodological condition for the study of religious experience. He applied this methodological condition in his study of the religious experience in Islam. He was of the view that Islam has not been studied objectively by students of religions, because of the Orientalist backgrounds, which dominated the field of the history of religions in the modern era. The study also found that using the classification of religions, as a condition of the study of religious phenomena was one of his innovations. Therefore, he is a pioneer in relying on the hadith of Gabriel to study the religious experience in Islam. Thus, he was able to derive the three stages of Islam Iman and Ihsan, and their interrelationship.

Keywords: Classification of religions, Religious experience, Muhammad Khalifa Hassan, stages of experience, Characteristics of the experience

[1] المؤلّف المراسل: **بدران بن لحسن** البريد الإلكتروني: **bbenlahcene@qu.du.qa**

1. مقدمة:

إن تصنيف الأديان يمثل أحد القضايا المهمة في درس الظاهرة الدينية. وقد أولاه حقل تاريخ الأديان عناية كبيرة، لما يوفره تصنيف الأديان من مساعدة على دراسة مختلف المجموعات الدينية، والصلات فيما بينها، وخصائص كل واحدة.

لكن تصنيف الأديان وقع في بعض المحظورات المنهجية، التي لخصها الدكتور محمد خليفة حسن، في أنها لم تدرس الظاهرة الدينية من داخلها، وإنما اعتمدت على حقول علمية أخرى، مما جعلها دراسة شكلية، لا تحقق الفهم المطلوب للظاهرة الدينية.

ولهذا، فقد انتقل الدكتور محمد خليفة حسن في تصنيف الظاهرة الدينية من مستوى النظر الخارجي، إلى ما أسماه "التصنيف الديني الموضوعي" الذي يعنى بدرس الظاهرة الدينية من داخلها.

ولذلك فإنه لم يهمل درس تصنيف الأديان، ولكنه اعتبره خطوة منهجية أولية ينبغي استكمالها بدراسة التجربة الدينية، واستثمار ما توصلت إليه تصنيفات الأديان عند مؤرخة الأديان، في فهم جوهر وطبيعة التجربة الدينية في الإسلام.

وفي هذه الورقة نسعى إلى تناول هذا الجهد العلمي الذي قام به الدكتور محمد خليفة حسن في درس الظاهرة الدينية، باعتماده على تصنيف الأديان، واستكماله بدرس التجربة الدينية. والهدف من ذلك استكشاف الابتكارات النوعية التي قدمها محمد خليفة حسن في درس الظاهرة الدينية بصورة علمية، متوسلين في ذلك بمنهج تحليلي لنصوص محمد خليفة حسن في كتاباته ذات الصلة بموضوع البحث.

2. التوحيد محور التصنيف.

ورثت الحضارة العربية الإسلامية تصنيف العلوم والمعارف من الحضارة اليونانية، ولكنها أضافت تصنيفا جديدا للأديان والملل والنحل، لم يكن معروفا من قبل. ويحق لنا القول إن تصنيف الأديان واحد من مبتكرات العلوم الإسلامية في أمر النظر إلى الأديان والملل والنحل.

وقد شارك في تنظيم هذا المجال وتنضيده والتدوين فيه جملة من العلماء الأجلاء؛ مثل أبي الحسن الأشعري وأبي الحسن العامري وابن حزم والشهرستاني وغيرهم كثير.

ويعتقد الدكتور محمد خليفة حسن أن الجهد التصنيفي الذي بدأه علماء المسلمين صار جهدا مستمرا إلى يومنا هذا. وذلك بسبب تعدد الأديان وتنوعها واختلاف فرقها ومذاهبها، وتطور هذه المذاهب على مر العصور. وكذلك قام مؤرخو الأديان بوضع تصانيف علمية، يتم من خلالها تقسيم أديان العالم إلى مجموعات وأصناف تسهم في دراستها دراسة علمية، وتحدد علاقة الأديان ببعضها البعض، وصلة الفِرَق الدينية ببعضها، وبأصولها الدينية، وبتأثيراتها المختلفة على الأديان الأخرى.

وقد صدرت هذه التصنيفات عن انتماءات أيديولوجية وفكرية ودينية وعلمية مختلفة متنازعة، مما أثمر مناهج مختلفة، وأحياناً تحكمات لا تمت للموضوعية بصلة، مما جعل المشتغلين بهذا العلم ينبهون إلى أهمية التجرد والعلمية في التعاطي مع أديان ومذاهب المختلفين مع من ينتهض لأمر التصنيف.

وقد ذهب بعض مؤرخة الأديان إلى تفضيل التصنيف التاريخي عن غيره، تأثرا بالحوليات التاريخية ومنهجها، وقام البعض بتفضيل التصنيف الجغرافي حسب الأقاليم، تأثرا بما استقر عن العلماء، بالنظر إلى أقاليم العالم وتصنيفها جغرافيا.

وقد انتقد الدكتور محمد خليفة حسن اعتماد التصنيف التاريخي والجغرافي من قبل بعض مؤرخة الأديان، ورأى أن الأولى تصنيف الأديان اعتمادا على المعيار الديني الموضوعي، المعتمد على عامل أو مفهوم ديني يكون صالحاً لتصنيف الأديان على أساسه. وهذا الأخير صار أكثر انتشاراً بين مؤرخة الأديان، لأنه مستمد من علم الأديان، ولا يعتمد على علم آخر غريب عن حقل الأديان.

وبالرغم من انتقاده للتصنيف التاريخي والجغرافي للأديان، فإنه يرى أن المعطيات التي يوفرها علما التاريخ والجغرافيا، يجب استخدامها من قبل مؤرخة الأديان، لتحقيق تصنيف لها يتسم بالعلمية والموضوعية، عن طريق الاعتماد على مقولات من داخل الأديان، تنتظم في داخلها المادة العلمية المتوفرة من علمي التاريخ والجغرافيا.

وفي نقده للتصنيف التاريخي للأديان يرى الدكتور محمد خليفة حسن أن صعوبات عدة تعترض هذا التصنيف؛ أهمها صعوبة تحديد زمن ظهور كثير من الأديان تحديدا دقيقاً، وبخاصة الديانات التقليدية وبعض الديانات التاريخية. كما أن هناك صعوبة ترتيب ظهور الأديان التي تزامنت نشأتها، ذلك لأنه كثيرا ما يحيط بشخصية مؤسس الديانة الأساطير والخرافات التي ليس لها أصل في التاريخ. وعلى سبيل المثال، فقد ظهرت البوذية والجينية والزرادشتية والكنفوشيوسية واليهودية في أزمان متقاربة، إذ تعود نشأتها إلى القرن السادس قبل الميلاد. ومن جهة أخرى، فإنا نجد أن التصنيف التاريخي يهتم بتحديد تاريخ ظهور الديانات التوحيدية، غير أنه لا يعنى بالنظرية الدينية السائدة فيها، والتي تبين أن التوحيد دين قديم قدم التاريخ الإنساني، بل يعود إلى بداية خلق الإنسان الأول. فالإسلام مثلا، يعتبر في نظريته الدينية أن الإسلام دين البشرية منذ بدايتها، وأن أنبياء الله كلهم بُعثوا بالمحتوى الاعتقادي نفسه. ووقعت الاختلافات في الشرعة والمنهاج. ومما ينتقد فيه هذا التصنيف أيضاً، أنه يقوم على أساس ينظر إلى الأديان من حيث وجودها التاريخي، بينما لا يلقي بالاً لاستمرار الفكر الديني لدين معين، بعد نهاية هذا الدين في التاريخ. بالرغم من أن بعض الأديان انتهت تاريخيا، لكنها قد تترك أثرها في شكل أفكار ومذاهب وفرق ضمن دين آخر. وآخر ما ينتقده الدكتور محمد خليفة حسن في التصنيف التاريخي، أنه من الصعوبة بمكان أن نفرض تحقيبات العصور التاريخية على تاريخ الأديان، لأن تاريخ الأديان لا يرتبط بالضرورة بتاريخ الشعوب والدول.

لأن القول بديانات وسيطة وديانات حديثة مثلا من حيث المضمون الديني، لا يمكن أن يقبل من قِبَل أتباع هذه الديانات. إلا إن كان المقصود بهذا التحقيب هو الوصف التاريخي لهذه الأديان في العصر الوسيط أو في العصر الحديث.

وأما في نقده التصنيف القائم على الجغرافيا، فيرى الدكتور محمد خليفة حسن أنه تصنيف محدود القيمة، ذلك لأنه من الواضح أن بعض الأديان قد انتشر في أكثر من قارة، وعلى سبيل المثال، فإن الإسلام والمسيحية لهما انتشار واسع في أكثر من قارة. كما وأننا نجد أن بعض هذه القارات يكاد يكون الغالب من سكانها تبعا لدين واحد، مع وجود أقليات دينية أخرى. ويسعفنا في هذا المجال القارة الأوروبية والأمريكيتان، حيث الغالب عليهما المسيحية بكنائسها المختلفة، بينما يستأثر الاسلام بشمال القارة الإفريقية وغربها، بينما تتوزع آسيا بين الإسلام والهندوسية والبوذية والكنفوشيوسية والشنتوية. بل إن بعض الأديان كانت نشأتها في قارة، ثم انتشرت في قارة أخرى خارجة عن نطاق قارة نشأتها، كما هو الشأن مع المسيحية التي نشأت في آسيا (فلسطين تحديدا) وانتشرت في أوروبا وأمريكا وغيرهما.

ومن جهة أخرى، فإن تسمية الأديان باسم أديان شرقية وأخرى غربية نسبة للأقاليم الجغرافية، لا ينطبق على بعض الأديان. فإذا كان يقصد بأديان الشرق (الهندوسية والبوذية والكنفوشيوسية والشنتوية والتاوية وغيرها)، ويقصد بأديان الغرب (اليهودية

والمسيحية والإسلام)، فإن الإسلام يستعصي على هذه النسبة الإقليمية. لأنه لا يقبل أن ينسب إلى الشرق أو الغرب، فهو جغرافيا ظهر في الشرق، لكنه انتشر شرقا وغربا وشمالا وجنوبا. والأمر نفسه يقال عن اليهودية والمسيحية اللتان ظهرتا في الشرق الأدنى وانتشرتا في بقية الأقاليم؛ شرقا وغربا وشمالا وجنوبا. وكذلك شأن البوذية والهندوسية في عالمنا اليوم.

بعد نقده للتصنيف التاريخي والتصنيف الجغرافي للأديان، واعتبارهما تصنيفان من خارج الدين ذاته، يذهب الدكتور محمد خليفة حسن إلى اعتماد التصنيف الموضوعي، الذي يقوم على مبادئ وأسس مستقاة من الأديان ذاتها؛ أي من طبيعتها. ويرى أنه التصنيف الأكثر قابلية لدراسة الأديان دراسة موضوعية. فهو يقوم على تصنيف يستند إلى فهم عميق للظاهرة الدينية، ومحاولة إخراج طرائق للتمييز بينها، من ضمن ما احتوت عليه من مفاهيم، واعتقادات، وأسس، وقيم، وغايات، يفهمها المشتغلون بهذا الحقل العلمي. وبذلك نستطيع أن نقدم تصنيفا يساعد على تقديم فهم دقيق للظاهرة الدينية، ولا يفتئت عليها، ولكنه يستمع لها بروية وتؤدة تتيح للظاهرة الدينية أن تفتح كنوزها لدارسها.

ولا شك أن هذا النوع من التصنيف أنسب التصنيفات وأكثرها قدرة على دراسة الأديان. لأنه ينظر في مدى تشابه واختلاف المفاهيم والمعتقدات الدينية. ويسمح بتجميع المتشابه منها في مجموعات مشتركة، باسم الموضوع أو المعتقد الديني الأكثر محورية فيها. ثم المقارنة بين المجموعات الدينية وتحديد العوامل أو المفاهيم المشتركة والمختلفة بينها.

وما قام به الدكتور محمد خليفة حسن من اختيار لهذا التصنيف، يجعله في سياق الجهد العلمي الإسلامي، الذي ابتدأه العامري في كتابه (الإعلام بمناقب الإسلام)، حيث أنه اعتمد في المقارنة بين الأديان على ما أسماه "أركان الأديان". وبذلك يؤكد الدكتور محمد خليفة حسن على أهمية تصنيف الأديان والنظر فيها بناء على مضمونها الديني، وعلى معيار هو لها لا من تحكمات خارجية.

وتطبيقا لهذا التصنيف الموضوعي، فإن الدكتور محمد خليفة حسن، يذهب إلى اختيار مجموعة من المعتقدات المحورية والمفاهيم الأساس في الأديان، لتكون هي مناط التصنيف؛ كالاعتماد على محورية الألوهية، ومصدر المعرفة الدينية، وقومية أو عالمية الدين، والغاية التي يرسمها الدين لمعتنقيه.

ولما كان مفهوم الألوهية محوريا في بعض الأديان، وقليل الحضور في أخرى، نجد أن الدكتور محمد خليفة حسن، يشير إلى تصنيف قام على هذه الثنائية (الأديان الإلهية والأديان غير الإلهية)؛ بمعنى أن الاعتقاد في نظام ديني يكون محوره الألوهية، ونظام ديني آخر لا يستند على هذا المحور الاعتقادي. وتغييب مفهوم الألوهية يعني بالضرورة العناية بمضامين روحية تدور حول وجود الإنسان في الكون.

ويزيد الدكتور محمد خليفة حسن تفصيلا في الأديان المستندة على الألوهية، ويجد أنها بدورها تنقسم حول وحدة أو تعدد الآلهة. ولهذا فهي تنقسم إلى ديانات تعددية، وديانات ثنوية، وديانات توحيدية.

أما بالنسبة للديانات التعددية (التي تؤمن بآلهة كثيرة)، فإن من أمثلتها التي ذكرها الدكتور محمد خليفة حسن، الديانات القديمة المرتبطة بتأليه الطبيعة والقوى المختلفة التي فيها، مثل ديانات الشرق الأدنى القديم؛ كالديانة المصرية القديمة، وديانات آشور وبابل، وكذلك ديانات اليونان، والرومان، وشعوب الأناضول وغيرها. وأما الديانات التوحيدية فتشمل اليهودية والمسيحية والإسلام، مع اختلاف فيما بينها في مفهوم التوحيد وطبيعة الألوهية. وأخيرا، الديانات الثنوية؛ كالزرادشتية وفروعها المختلفة مثل المانوية والمزدكية.

وتجدر الإشارة، كما ذكر الدكتور محمد خليفة حسن، أن هناك تصنيفات قريبة من هذه، مثل تصنيف الأديان إلى إلهية وطبيعية، وكتابية وغير كتابية، وسماوية ووضعية، وأديان نبوية وغير نبوية، وغيرها من التصنيفات التي تندرج بطريقة أو أخرى تحت تصنيف الأديان بناء على فكرة الألوهية.

وهناك تصنيف آخر موضوعي للأديان يذكره الدكتور محمد خليفة حسن، ويعتمد على قاعدة العالمية في قبالة القومية. وبعبارة المؤلف؛ "تصنيف الأديان إلى عالمية وقومية أو عالمية وشعبية محلية" . فالديانة العالمية هي التي يراها معتنقوها صالحة للعالم جميعا، ولا فرق بين البشر في التزامهم بها، كالإسلام والمسيحية والبوذية. بينما الديانة القومية ديانة تتميز بالخصوصية القومية، ولا يمكن لمن لا ينتمي إلى قوم معينين أن يتدين بها، مثل الهندوسية واليهودية اللتين تؤمنان بالخصوصية العرقية، وكذلك الديانات التي تعتقد في أن الإله خاص بالقبيلة أو الجماعة دون غيرهم، ويربط القبيلة بإله رابط الدم والعرق، وتتوارثه الأجيال أباً عن جد.

ويتفرع عن تصنيف الأديان حسب العالمية والقومية مسألة هامة، تتعلق بمدى قابلية هذا الدين أو ذاك للتبشير به ودعوة الناس إليه. ذلك أننا نجد الديانات العالمية تقوم على التبشير والدعوة إلى الانتماء إليها، أما الديانات القومية فميلاد الشخص يحدد ديانته.

وضمن التصنيف الموضوعي أيضا، يرى الدكتور محمد خليفة حسن أن هناك تصنيف للأديان بناء على السمة الغالبة عليها. فأديان التوحيد أو الأديان الإلهية، يغلب عليها أنها ديانات تشريعية، تعتمد على الشريعة التي جاء بها الوحي، بينما الأخلاق والتصوف والجانب الفكري والفلسفي ثمرة من ثمرات نظامها الاعتقادي والتشريعي. أما المجموعة الدينية الأخرى، المتمثلة أساسا في ديانات الشرق الأقصى، فإنها أنظمة فلسفية وأخلاقية وصوفية، تعتمد الطريق الصوفي والتأمل الداخلي، سمة بارزة فيها. ولهذا هناك من يسميها الديانات الصوفية الفلسفية الأخلاقية.

وضمن التصنيف الديني الموضوعي أيضاً، تُصَنّفُ الأديان بناء على غايتها القصوى. فنجد ديانات الخلاص، وهو تصنيف يكاد يجمع معظم الأديان، بالرغم من الاختلاف في مضمون الخلاص ونوعه، في مقابل الإسلام الذي له غاية مختلفة عنها، لذلك فهو يقع وحده في مجموعته الخاصة. يقول الدكتور محمد خليفة حسن: "معظم ديانات الشرق الأقصى ومعها اليهودية والمسيحية حددت هدفها في تحقيق الخلاص الإنساني، مع الاختلاف في موضوع الخلاص وطرق تحقيقه، فقد سميت هذه الأديان جميعها بديانات الخلاص". ليس ذلك فحسب، بل أن بعض دارسي الأديان اختار "تسمية ديانات الشرق الأقصى باسم ديانات النرفانا، لأنها تسعى إلى تحقيق الخلاص بإخراج الإنسان من الدنيا بما فيها من آلام وشقاء ومعاناة وإدخاله النرفانا".

وخلاف المجموعة التي تنضوي تحت مسمى ديانات الخلاص، فإن الإسلام يتميز بتحديد غايته بنفسه، ولا ينضوي تحت تلك المجموعة، فهو "لم يحدد مشكلة معينة للإنسان ليتم الخلاص منها بأسلوب معين. فهدف الإسلام تحقيق طاعة الإنسان لله سبحانه وتعالى، وإعلان الخضوع له، واستسلام الإرادة الإنسانية لله. والإسلام ليست له قضية معينة يسعى لتخليص الإنسان منها كما فعلت كل أديان العالم، ولذلك لا يمكن إدراجه تحت تصنيف ديانات الخلاص. فالإسلام هداية للإنسان ليحقق الاستخلاف من خلال عبادة الله وعمارة الكون" .

فإن الإسلام قد جعل الإنسان حال ولادته يولد على الفطرة، ومن ثمّة فإن الإنسان لا يحمل عبئا يحتاج إلى الخلاص منه، بل هو ساع في هذه الدنيا لتحقيق عمارة الأرض وتزكية نفسه. والوحي يأتي يرسم للإنسان منهجا لإنقاذه من الضلالات، وتحقيق كمالاته الخلقية والنفسية والروحية، على المستوى الفردي والجماعي.

وتأكيدا لمركزية القرآن في صياغة المعرفة الدينية، وتوظيفا لمنهجية القرآن في تصنيف الدكتور محمد خليفة حسن للأديان ودراستها، يَعتبرُ "مبدأ التوحيد"، معيارا لتصنيف الأديان وتقسيمها إلى مجموعات. حيث يقول: "وقد اعتبرنا فكرة التوحيد مناسبة جداً لقسمة الأديان إلى مجموعتين كبيرتين؛ مجموعة الديانات التوحيدية ومجموعة الديانات غير التوحيدية.. وبالنسبة للمجموعة الأخيرة فضلنا تسميتها بمجموعة الديانات الفلسفية الأخلاقية، وذلك لأن أديان هذه المجموعة وهي ديانات الشرق الأقصى عموما – في معظمها لا تأخذ بمبدأ الألوهية وبالتالي فعبارة (غير توحيدية) لا تنطبق عليها تماما لغياب عقيدة أو مفهوم الألوهية في معظمها، والسمة الغالبة على هذه الأديان هي السمة الفلسفية الأخلاقية".

ورغما عن أن الدكتور محمد خليفة حسن قد أكد على أهمية التصنيف الموضوعي، إلا أنه رأى أن يحدث تكاملا بين التصنيف الموضوعي وبين التصنيف التاريخي، على أساسٍ من إعطاء التصنيف الموضوعي أولوية، وإدراج التاريخي في إطاره. حيث يقول: "آثرنا الخلط بين نوعين من التصنيف: الأول التصنيف الموضوعي الذي يقوم على أساس من فكرة دينية أو عامل ديني يصلح لتصنيف الأديان. والثاني هو التصنيف التاريخي" . وذلك أن التصنيف الموضوعي أنسب التصنيفات في علم تاريخ الأديان، لأنه "يرتكز على فكرة دينية أساسية مستمدة من داخل الفكر الديني وليس من خارجه".

ولا بد لنا من القول، إن إعمال المنهج التاريخي في فهم الظاهرة الدينية، مختلف تماما عن التصنيف التاريخي للأديان. إذ أن إعمال المنهج يصوب النظر نحو الكتب الدينية والوثائق وما تمخض عن ذلك من تراث ديني مكتوب أو شفهي، لفهم علاقة ذلك التراث بمؤسس الدين، ونصوصه الأصلية وتطور تدوينها ومن ثم تفسيرها، وتطور الحياة الدينية والثقافية ونشوء الفرق والمدارس الدينية، وكيفية استدلالها بتلك النصوص الأصلية.

وخلاصة ذلك هو التمييز بين النصوص الأصلية وبين التفسيرات اللاحقة، التي صارت مكوّناً مهمًّا في فهم الظاهرة الدينية. ومن ثم أعطت الظاهرة الدينية استمراريتها.

لعل من نافلة القول، حينما استُحدث فرع جديد في دراسة الظاهرة الدينية في السبعينيات من القرن الماضي على يد الفاروقي، عرف فيما بعد بالجغرافية الدينية، كان الدكتور محمد خليفة حسن في ذلك الحين يعد أطروحة الدكتوراه في جامعة تمبل تحت إشراف الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي، وكان هو ولفيف من زملائه قد أعانوا أستاذهم على إنجاز هذا العمل العلمي المبتكر، وذلك في كتاب (الأطلس التاريخي لأديان العالم) الذي حرره إسماعيل راجي الفاروقي وديفد سوفر. والذي أدخل في دائرة فهم الظاهرة الدينية الجغرافيا، ومن ثم أكد على الفرق بين التصنيف الجغرافي للدين وبين جغرافية الدين. حيث أن جغرافية الدين يمكن كذلك أن تقع تحت التصنيف التاريخي.

وما نختم به حديثنا عن تصنيف الأديان في منظور الدكتور محمد خليفة حسن، أن الأديان تصنف الأديان ضمن مجموعات دينية تسهل لنا دراستها دراسة موضوعية. وهو باختياره التصنيف الموضوعي، فإنه اعتبر مضمون الدين معيارا لدراسة الظاهرة الدينية وفهمها. وقد وضع الأديان ضمن مجموعتين كبيرتين هما؛ المجموعة التوحيدية، ومجموعة تعدد الالهة، بحيث تنضوي تحت المجموعة الثانية ديانات شرق آسيا أو ما يعرف بالديانات الشرقية.

إن هذا التصنيف الذي قام بها الدكتور محمد خليفة حسن يجعل من الديانات التوحيدية تتمحور حول فكرة الإله الواحد، بينما تميل مجموعة الديانات الشرقية خاصة إلى الاهتمام بالجانب الأخلاقي أكثر من انشغالها بفكرة الإله.

وباعتبار أن هذا التصنيف يعطينا تقسيما شكليا للظاهرة الدينية، فإن الدكتور محمد خليفة حسن، يوجهنا إلى ضرورة تجاوز هذه المرحلة الأولية، إلى مرحلة أخرى تتجه إلى فهم الظاهرة الدينية في عمقها وممارستها. ولذلك فإنه يرى –جريا على طريقة شيخه الفاروقي– ضرورة دراسة التجربة الدينية، لأنها المعبر الحقيقي عن مضمون الدين وما يحمله من نسق تصوري وقيم وممارسات تميزه عن غيره من الأديان.

3. التجربة الدينية:

هناك جدل فلسفي ميتافيزيقي بين مثبتي وجود الإله ونفاته، وبالرغم من أن هذا الجدل طويل الامتداد في التاريخ، فإن المتجادلين فيه لم يصلوا إلى موقف مشترك بشأنه، غير إن المثبتين والنفاة متفقون على أن البشرية عبر التاريخ عرفت ما يسمى "بالتجربة الدينية"، التي من الممكن أن تكون مجالاً للبحث والدراسة بدل ذلك النقاش الأنطولوجي الميتافيزيقي.

كما أن دارسي الأديان يتفقون على أن التجربة الدينية الحية التي عاشها ويعيشها أتباع الأديان، تمثل مجالا خصبا وقاعدة مهمة لفهم الظاهرة الدينية وتقييمها، من حيث صلة الإنسان بالإله أو الوجود العلوي القائم بذاته، واجب الوجود، المنفصل عن وعي الإنسان بنفسه.

3. 1. جوهر التجربة الدينية مع التطبيق على الإسلام.

من بين القضايا الكبرى التي اهتم بها تاريخ الأديان قضية التجربة الدينية ومحوريتها في فهم الظاهرة الدينية. ذلك لأنها تحتوي على العلامات الفارقة بين دين وآخر، إذا اجتمعت هذه الأديان في ظل تصنيف واحد، لتحديد المشترك والمختلف بينها، كما هو شأن الأديان التي تنتمي إلى المجموعة التوحيدية مثلا، حيث أن التجربة الدينية في كل واحد منها يجعلها تتمايز عن بعضها البعض، رغم انتمائها لمجموعة واحدة، كما سيأتي لاحقا.

ويرى الدكتور محمد خليفة حسن أن الفاروقي أولى عناية خاصة لموضوع التجربة الدينية من حيث منهج درس الظاهرة الدينية في علم تاريخ الأديان. وأن هذه التجربة يمكن اكتشافها ودرسها في الأديان، من خلال طرح بعض الأسئلة التي تكشف عنها، مثل سؤال؛ هل التجربة الدينية لدين ما لها جوهر؟ وهل هذا الجوهر قابل للإدراك والمعرفة النقدية؟ وهل هذا الإدراك والمعرفة النقدية للجوهر تناقض بصورة مطلقة أي مكون من مكوناتها الأساس؟

وقد قام بصورة عملية بتطبيق ذلك على الظاهرة الدينية في الإسلام، في كتابه (أطلس الحضارة الإسلامية). حيث اعتبر الفاروقي أن للإسلام جوهر، وأن جوهره هو التوحيد، وهو جوهر قابل للإدراك والتعقل وينفي اللاأدرية.

وهو قائم على مبادئ ثلاثة: أولها، الثنائية بين الله والعالم، وهي مبدأ يميز بصورة حاسمة بين الله الخالق والعالم المخلوق، فلا الخالق يتمثل في المخلوق أو يحل فيه أو يتوحد معه، ولا المخلوق يتسامى ليصبح الخالق بأي شكل أو معنى. وثانيها، الإدراكية: مبدأ يؤكد أن العلاقة بين الخالق والمخلوق تتصل بقدرة الإنسان على إدراكها وفهمها واستيعابها. وثالثها، الغائية: مبدأ يؤكد أن الله خلق العالم والإنسان المستخلف فيه لغاية كونية محددة؛ فلا عبث، ولا فوضى.

وقد عضد الدكتور محمد خليفة حسن مقالته تلك بالاستشهاد بنص مهم للفاروقي، في كتابه (أطلس الحضارة الإسلامية)، "وفي الإجابة الإسلامية عن هذه التساؤلات، يجيب الفاروقي أنه على الرغم من حداثة هذه التساؤلات؛ أي ارتباطها بعلم حديث، هو (علم تاريخ الأديان الحديث)، فهي مقبولة، والرد عليها إيجابي من وجهة النظر الإسلامية. فالإسلام له جوهر، وهو دين

بامتياز، بل هو الدين. ويؤكد الفاروقي أن علماء المسلمين أجمعوا على أن الله تعالى هو مركز هذا النظام، وسمُّوا معرفته بالتوحيد، والبقية من الواجبات والمندوبات والمكروهات والمحرمات والحسنات، التي في مجموعها تحمل اسم (شريعة)، كما أن المسلمين سموا معرفتها (الفقه)" .

وقد نبهنا كذلك على محورية كتاب (أطلس الحضارة الإسلامية) في تطبيق رؤية الفاروقي لمعنى التجربة الدينية في الإسلام. ففي الكتاب تطبيق عملي للمبادئ النظرية التي اختطها في كتابه (الأخلاق المسيحية) بصورة منهجية عامة.

وانتقد الدكتور محمد خليفة حسن ما ذهب إليه المستشرق ولفرد كانتول سميث، الذي ذكر في كتابه (معنى وغاية الدين) أن الإسلام ليس له جوهر، وأن هناك فقط مسلمين تتغير إسلاميتهم **Musliminess** كل صباح. ورأى الدكتور محمد خليفة حسن أن هذه النقطة تعد نقطة فارقة بين رؤية المسلمين للإسلام وبين رؤية المستشرقين عموما له. وهي رؤية ظالمة ومُجحفة في حق الإسلام بوصفه ديناً. فقد تعوَّد عامة المستشرقين على ربط الإسلام باليهودية والمسيحية، ونزعوا عنه استقلاليته بوصفه ديناً، فلم يعترفوا له بجوهر ديني يختص به، أو تجربة دينية تبين معالمه الجوهرية. إذ أنه ليس انحرافاً أو خروجاً عن التجربة اليهودية والمسيحية. بل هو تجربة دينية قائمة بذاتها، تجاوزت انحرافات اليهودية والمسيحية عن معاني التوحيد المطلق.

3. 2. التسمية ب (الإسلام) وصلتها بجوهر الدين[1]

لئن أخذ الدكتور محمد خليفة حسن على كانتول سميث نفيه لوجود جوهر للإسلام، إلا أنه اتفق معه على أن أسماء الأديان المعروفة لدينا لم تُتَّخذ حال تأسيسها. بل عبرت إما عن أسماء أشخاص أو أماكن أو قوميات أو أعراق معينة، إلا الإسلام. فالإسلام هو الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة في تاريخ الأديان. لأنه لم ينسب إلى شخص، أو إلى مكان، أو إلى جماعة، أو إلى قوم، أو إلى شعب ما، وجاء اسمه في وثائق الدين المؤسسة له (القرآن والسنة). ولا شك أن الإسلام عبّر في مسماه عن معناه الديني، بل هو جوهر الدين كله. إذ أن جوهر الإسلام تسليم الإنسان لله وخضوعه لإرادة الله الواحد[2].

فالاسم يحمل معنى الخضوع لإرادة الله، ولكلمة (إسلام) دلالات دينية عديدة، وثيقة الصلة بجوهره؛ وأولها مفهوم الطاعة التي هي ترجمة عملية لاستسلام إرادة الإنسان لله تعالى. فالطاعة لب التجربة الدينية للإنسان.

كما أن كلمة (إسلام) لها دلالة على وحدة الدين. فمعنى الخضوع التام لله تعالى هو جوهر الدين منذ بداية الخليقة، وليس مرتبطا برسالة الإسلام الخاتم. وهذا يدل على أن التجربة الدينية الإسلامية بمعناها العام ليست تجربة جديدة ولا مرتبطة بالدين الخاتم فقط، بل ترتبط بالإسلام بمعناه العام الذي حمله الأنبياء جميعا.

وبهذا المعنى، فإن الإسلام هو دين البشرية منذ بدايتها، كما عبر عنه تاريخ الأنبياء والرسل عليهم السلام، وكما عبر عنه الوحي الإلهي المتتابع على الأنبياء. ولهذا سمى القرآن كل منا تبع رسالة الأنبياء وأخضع إرادته لله وحده مسلما. وعليه، فالتسمية (إسلام) تعبر عن التجربة الدينية العامة للبشرية، بوصف أن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله للإنسان.

والدلالة الأخرى لكلمة (إسلام) هي دلالتها على الألوهية. فالصلة التي تربط الإنسان بالوجود الإلهي المتميزة بالخضوع، هي صلة واعية بالله تعالى، وليست صلة مبهمة أو لا أدرية بموجود أو قوة غير محدودة كما في بعض التجارب الدينية. بل أن بعض

[1] حسن، **تاريخ الأديان**، 270.

[2] حسن، **تاريخ الأديان**، ص267.

الديانات الشرقية لا تعرف فكرة الخضوع للوجود الإلهي، بل تركز على معاناة الإنسان وكيفية الخلاص منها. ولعل هذا يشير إلى ما ذكرناه آنفا على لسان الفاروقي، في أن الله هو محور الإسلام والتجربة الدينية الإسلامية.[1]

وهناك ما يعضد ما ذهب إليه الدكتور محمد خليفة حسن في دلالة لفظ (إسلام) على هذه الصلة الواعية بالله تعالى، والتأكيد على التوحيد فيها، بتوجه الموحدين عبر التاريخ إلى الله الواحد الأحد، وبهذا يكون الإسلام واحدًا، وليس إسلامات متعددة، مما يجعله هو الدين بأل التعريف، لأنه يستغرق خط النبوة كله، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإسلام﴾ [آل عمران:19]. وهو الذي لا يقبل سواه ديناً؛ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:85].

ويؤكد الدكتور محمد خليفة حسن في نص يبين لنا رؤيته للعلاقة بين الإسلام وبين التاريخ، وبين الإسلام وبين الأديان الأخرى، فيقول: "بالإضافة إلى حقيقة أن الإسلام ليس له تاريخ حسب الفهم المنهجي لعلم تاريخ الأديان في الغرب، فإن الإسلام يحتوي تاريخ الأديان كله، فالإسلام يمثل بداية تاريخ الأديان ونهايته. ولا يتناقض هذا الرأي مع حقيقة أن الإسلام كدين لا يخضع للعوامل التاريخية"[2].

ثم يبين لنا علاقة الإسلام بالأديان قائلا: "الإسلام يحتوي تاريخ الأديان، لأنه أقدم الأديان وأحدثها، وآخرها فينفس الوقت. وليس في هذا إخضاع للإسلام للتاريخ، إنما إخضاع التاريخ للإسلام"[3]. ثم يستطرد مبينا النظرية الإسلامية في شأن فهم التوحيد، وأنه رسالة الأديان جميعا، "فالتوحيد هو الأصل في التدين، وأن البشرية عرفت الإله الواحد الخالق منذ بدايتها، ولذلك فآدم عليه السلام هو أول البشرية، وأول الأنبياء، وأول المسلمين"[4].

ومما يعضد ما ذهب إليه الدكتور محمد خليفة حسن أيضا، اعتبار القرآن الإسلام دين الأنبياء جميعاً، أساسه توحيد الله. فهو الذي أمر الله به إبراهيم عليه السلام وأبناؤه من بعده[5]، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آَبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:130-133].وقد اكتمل خط النبوة وبنيان الدين في الرسالة الخاتمة، كما ينبهنا القرآن على ذلك، في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:13]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:40].

---

[1] إسماعيل الفاروقي، **التوحيد**، ترجمة د: السيد عمر، مدارات للأبحاث والنشر، الطبعة الثانية، 2014م، ص 41

[2] حسن، **تاريخ الأديان**، ص244.

[3] حسن، **تاريخ الأديان**، ص 244.

[4] حسن، **تاريخ الأديان**، ص244.

[5] بدران بن لحسن، "**المادة المعرفية والمنهجية لدراسة الأديان في القرآن الكريم**"، مجلة الحضارة الإسلامية، مجلد 21، عدد 1، جوان/يونيو 2020، ص377-378.

كما تعضده السنة النبوية الشريفة في أن دين الله واحد، ورسالة الانبياء واحدة ومتكاملة، حيث شبهت النبوة كلها بالبناء المكتمل[1]: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلاّ وُضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[2].

واعتبار الإسلام دين الأنبياء جميعا، يجعل رسالته الخاتمة تضع أمام المؤمنين قواعد تساعدهم على تفادي الوقوع في التحريف والانحراف عن خط النبوة، بما يجعل الإسلام في رسالته الخاتمة كأنه دليل نقدي للمؤمنين بالأديان يمارسون به نقداً لأي انحراف عن التوحيد الذي هو محور دلالات كلمة (إسلام)[3].

إن دلالات تسمية (إسلام) التي ذكرناها آنفا، تجعل الإسلام دين الله الذي يجتمع عليه كل الأنبياء، وأنه توجه إلى الله بالخضوع والطاعة والعبادة، إلها واحدا. وقد حمله خط النبوة عبر التاريخ. هذه الدلالات التي اكتملت مع النبوة الخاتمة، والتي هي رسالة مصدِّقة لدعوات الأنبياء وأمينة عليها، حتى لا يصيبها التحريف أو التبديل.

ومن هذه الرؤية القرآنية، يبدو واضحا معنى جوهر الدين، وارتباطه بتسمية (إسلام) للظاهرة الدينية بإطلاقها، وتشكلاتها التاريخية المتعددة.

3. 3. طبيعة التجربة الدينية في الإسلام:

بناء على تصنيفه للأديان على أساس موضوعي، يرجع إلى طبيعة الدين ذاته، واحتكاما إلى المبدأ الأساس الذي يقوم عليه الدين، ينتقل بنا الدكتور محمد خليفة حسن إلى الحديث عن التجربة الدينية، وهي وثيقة الصلة بمعنى الدين ذاته، الذي ينطوي على مظهر خارجي (الطقوس والشعائر والعبادات والتشريعات...)، وجوهر داخلي يتضمن المعاني والأحاسيس والمشاعر التي تسيطر على المتدين في تمثله للمظاهر الخارجية للدين، حتى يكون لالتزامه الديني معنى.

وهو في هذا يشترك مع غيره من دارسي الأديان في تأكيدهم على وجود الجوهر أو المعاني الداخلية للدين في مقابل المظاهر الخارجية، والتي لا يمكن درسها إلا عن طريق المعايشة أو التحول، مما يجعل من الصعوبة بمكان درس التجربة الدينية عند دارسي الأديان.

وبالنسبة للإسلام، يرى الدكتور محمد خليفة حسن أن التجربة الدينية في الإسلام مرتبطة أساسا بجوهر الإسلام كدين، فالمتدين في الإسلام هو المسلم المطيع المقر بالجزاء والحساب في الدنيا والآخرة، وهذا هو نفسه جوهر التفرقة بين التجربة الدينية والتجربة الفلسفية[4].

ويؤكد الدكتور محمد خليفة حسن هذا الفرق بين التجربة الدينية والتجربة الفلسفية؛ ففي الوقت الذي تقوم التجربة الفلسفية على القناعات العقلية أو المعرفة العقلية، ولا تستلزم طاعة ولا سلوكا عمليا، فإن التجربة الدينية تقوم على المعرفة والطاعة والانقياد؛ بمعنى أن المتدين يبني التزامه الديني على معارف عقلية تستلزم طاعة، تقود إلى تطبيق عملي ومعايشة جوانية.

---

[1] بن لحسن، **المادة المعرفية والمنهجية لدراسة الاديان**، ص378.

[2] محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، دمشق: دار ابن كثير، ط1، 1423هـ/2002م، ص873، حديث رقم 3534.

[3] حسن، **تاريخ الأديان**، ص11-12.

[4] حسن، **تاريخ الأديان**، ص 273-274.

وقد استند في تحليله هذا، على ما ذكره الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) عند بيان قسمة الناس بين مستبد ومستفيد، حيث أن المستفيد هم أصحاب الأديان، والمستبد هم من اعتمدوا على عقولهم مثل الفلاسفة، وأصحاب الأديان تلقوا الوحي والمعارف عن طريق النبوات، التي رسمت لهم الشرائع، فانقادوا لها بالطاعة أفرادا ومجتمعات، أما الفلاسفة فقد استبدوا برأيهم.

يقول الشهرستاني: "إن أهل العالم انقسموا من حيث المذاهب إلى: أهل الديانات، وإلى أهل الأهواء. فإن الإنسان إذا اعتقد عقدا، أو قال قولا، فإما أن يكون فيه مستفيدا من غيره، وإما مستبدا برايه. فالمستفيد من غيره مسلم مطيع، والدين هو الطاعة، والمسلم المطيع هو المتدين، والمستبد برأيه محدث مبتدع ... فالمستبدون بالرأي مطلقًا هم المنكرون للنبوات مثل الفلاسفة، والصابئة، والبراهمة، وهم لا يقولون بشرائع وأحكام أمرية، بل يضعون حدودًا عقلية حتى يمكنهم التعايش عليها.والمستفيدون هم القائلون بالنبوات.ومن كان قال بالأحكام الشرعية فقد قال بالحدود العقلية، ولا ينعكس"[1]. فأصحاب الديانات لهم ميزة أن لهم معارف ولهم طاعات، خلاف الفلاسفة الذين لهم معارف، ولكن ليس بالضرورة أن تكون لهم طاعات.

3. 4. مراحل التجربة الدينية في الإسلام:

يرى الدكتور محمد خليفة حسن أن تجربة المسلم وخبرته الدينية تمر بعدة مراحل، قد تكتمل مراحلها فيصبح المسلم صاحب "تجربة دينية متكاملة"، أو لا تكتمل فتصبح تجربة ناقصة أو لم تبلغ ذرى التجربة الدينية. وهذه المراحل تعبر عن واقع ديني معاش أو عن تطلعات تسهم في الدفع بتجربة المسلم الدينية إلى كمالاتها، ولا يلحقها ارتكاس. ومن جهة أخرى، فإن هذه المراحل وسلوكها من قبل المسلم، تعبر عن درجة التدين لدى الفرد والمجموع، وسبيلا لقياس التدين الذي يمثل صلة الإنسان بالله وبالعالم. وهي تجربة مراحلها (الإسلام والإيمان والإحسان)[2].

ويبدو أن الدكتور محمد خليفة حسن قد استند في تقسيمه لمراحل التجربة إلى ثلاث مراحل[3]، على الحديث النبوي الشريف، الذي يتحدث عن الإسلام والايمان والإحسان، والمعروف بحديث جبريل عليه السلام، كما جاء في كتب السنة؛ أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبته إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: "يا محمد أخبرني عن الإسلام"، فقال له: "الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا"، قال: "صدقت"، فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: "أخبرني عن الإيمان" قال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره"، قال: "صدقت"، قال: "فأخبرني عن الإحسان"، قال: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"..."[4].

---

[1] أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، **الملل والنحل**، مؤسسة الحلبي، د.ت، ج1/ ص36-37.

[2] حسن، **تاريخ الأديان**، ص 274-275.

[3] حسن، **تاريخ الأديان**، ص 275.

[4] أخرجه مسلم في صحيحه، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة. أنظر:

3. 4. 1. المرحلة الأولى من مراحل التجربة الدينية في الإسلام: الإسلام. الإسلام الظاهري.

في حديثه عن المرحلة الأولى من التجربة الدينية في الإسلام يرى الدكتور محمد خليفة حسن أنها تبدأ بمرحلة "الإسلام"، فهي أولى مراحل الانقياد والالتزام بالدين، وقد أشار الدكتور محمد خليفة حسن إلى أنها هي نفسها مرحلة "المبدأ"[1] عند الشهرستاني. فهي بداية الخبرة الدينية، بما تتضمنه من طاعة وانقياد، وهي تعني الخضوع والاستسلام للإرادة الإلهية، والتعبير عن ذلك الاستسلام بالخضوع ولو بصورة شكلية ظاهرية.

ومتطلبات هذه المرحلة هي إعلان الشهادة، وفي ذلك قبول لوحدانية الإله ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، والتلفظ بذلك بصيغة "أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله". ويعتبر هذا متطلب نظري يعلن الدخول في الإسلام، أما المتطلبات العملية لهذه المرحلة فتتمثل في أداء الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد. وهذه المتطلبات هي التي تفرق بين المسلم وغير المسلم، في هذه المرحلة الأولية من التجربة الدينية. ويسميها الدكتور محمد خليفة حسن أنها مرحلة الخضوع الفردي؛ وهي عنده شخصية بحتة[2].

3. 4. 2. المرحلة الثانية من مراحل التجربة الدينية في الإسلام: الإيمان.

أما المرحلة الثانية من التجربة الدينية في الإسلام، فهي الإيمان، عند الدكتور محمد خليفة حسن. وهي مرحلة الإسلام الاعتقادي، الذي يعنى بباطن المسلم، بقبالة ظاهر المسلم كما هو في المرحلة الأولى، وهي مرحلة إسلام القلب، ومرحلة العمل أو التقوى.

وهي مرحلة ينتقل فيها المسلم من الإعلان الظاهري بقبول الإسلام في النطق بالشهادة وأداء الفروض التي تحدد المسلم شكلا وظاهرًا، إلى مرحلة الإيمان؛ وهى مرحلة العمل، التي جعلها الدكتور محمد خليفة مطابقة لما عند الشهرستاني من تسمية لها باسم "الوسط"[3]. فكأنها وسط بين مرحلة الإسلام وبين مرحلة الإحسان التي تمثل أعلى مراحل التجربة الدينية.

ويحتج الدكتور محمد خليفة حسن، بأن تسميتها بالعمل، القصد منه ذلك الانتقال من الإسلام الظاهري إلى مرحلة يصبح الإنسان فيها مؤمنا بما كان قد قبله ظاهرا في المرحلة الأولى. ذلك لأن الإسلام الظاهر، لا يعني بالضرورة الإيمان الفعلي. وفي هذا يستشهد الدكتور محمد خليفة حسن بقوله تعالى: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) [الحجرات: 14]. ويؤمِّن الدكتور محمد خليفة حسن على شرح الشهرستاني في بيان الفرق بين الإيمان والإسلام، في "الاستسلام الظاهري ويشترك فيه المؤمن والمنافق".

ومن متطلبات هذه المرحلة، بالإضافة إلى ما ورد من متطلبات في المرحلة الأولى، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، والبعث والجنة والنار، والحساب والميزان[4].

مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، دون تاريخ، ج1/ ص36؛ وأخرجه البخاري في صحيحه، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة. انظر: محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، دار طوق النجاة، 1422هـ، ج1/ ص19. واللفظ لمسلم.

[1] الشهرستاني، **الملل والنحل**، مؤسسة الحلبي، ج1، ص 41

[2] حسن، **تاريخ الأديان**، ص275.

[3] حسن، **تاريخ الأديان**، ص 275.

[4] حسن، **تاريخ الأديان**، ص275.

ويرى الدكتور محمد خليفة حسن أن الذي يجمع بينها أنها مفاهيم نظرية ومعتقدات معمِّقة لمعتقدات المرحلة الأولى وفروضها. حيث كان تركيز مرحلة الإسلام على الفروض الدينية، بينما صار التركيز في المرحلة الثانية على المعتقدات التي تثبّت تلك الفروض وتعمقها، وتنقلها من البعد الشكلي المعلن إلى البعد القلبي[1].

3. 4. 3. المرحلة الثالثة من مراحل التجربة الدينية في الإسلام: الإحسان.

أما المرحلة الأخيرة –عند الدكتور محمد خليفة حسن– في ترتيب مراحل التجربة الدينية، فإنها مرحلة الإحسان. وقد ذكر الدكتور محمد خليفة حسن أنها هي مرحلة "الكمال"[2] عند الشهرستاني؛ فهي مرحلة كمال التدين، وأكمل أشكال الالتزام الديني. وهي مرحلة القدرة على التذوق الديني والحياة به، والانشغال به بكل قدرات الإنسان ومشاعره[3]. وصلة هذه المرحلة بالأولى والثانية عند الدكتور محمد خليفة حسن أنها مرحلة تعبر عن انصهار متطلبات المرحلتين السابقتين، واتخاذهما شكلا اجتماعيا وبعداً يتجاوز الصفة الشخصية الفردية التي هي من سمات المرحلة الأولى، والتي تنزوي تدريجيا في المرحلة الثانية، لتختفي تماماً في المرحلة الأخيرة، والتي هي بحق ترجمة للدين في المجتمع، وتأكيد على البعد الاجتماعي للدين. بل يذهب الدكتور محمد خليفة حسن أبعد من ذلك، ليرى أن المرحلة الثالثة معبرة عن كمال الدين في مجال العمل والتطبيق.

وفي تأكيده على ما ذهب إليه من متطلبات المرحلة الثالثة، فإن الدكتور محمد خليفة حسن، يستشهد بالحديث الشريف السابق الذكر، في أن الإحسان "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك"[4]، بمعنى أن الإحسان هو غاية الطاعة وهدفها الأخير، كما يعني الإحسان خشية الله وتقواه، ومراقبته في كل شيء. ويرى أيضا فيه دليلا على أن هذه المرحلة فيها انعكاس للمرحلتين الأولى والثانية. ففي حين كانت المرحلتان السابقتان معبرتين عن علاقة الإنسان بالله، فإن مرحلة الإحسان فيها انعكاس لهذه العلاقة في المجتمع[5].

ويستطرد الدكتور محمد خليفة حسن، في بيان أن الإحسان عملية صهر اجتماعي للتجربة الدينية، تتبلور فيها وتتعمق وتكتمل كل مراحل التجربة الدينية. مستشهدا بقوله تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) [النساء: 125]، وقوله تعالى: (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) [البقرة: 122].

ويبين لنا الدكتور محمد خليفة حسن الفرق الرئيس بين المرحلتين الأولى والثانية وبين المرحلة الثالثة، حيث أن هذه الأخيرة هي مرحلة صهر الإسلام الظاهري والداخلي لتنتج حالة من التدين يكون فيها الإسلام الداخلي (الايمان)قد اتخذ شكلا ظاهريا جديدا، لا يشترك فيه المؤمن والمنافق. بل يأخذ الإيمان بعداً اجتماعيًا، ليصير إحساناً ينعكس في المجتمع، وكأن الشكل الظاهري

[1] حسن، **تاريخ الأديان**، ص 276.
[2] الشهرستاني، **الملل والنحل**، ص 41
[3] حسن، **تاريخ الأديان**، ص 276
[4] سبق تخريجه.
[5] حسن، **تاريخ الأديان**، ص276.

للمرحلة الأولى قد عاد بوجه جديد، ولكن سمته أنه خلو من أن يشوبه النفاق. وبهذا، فالمرحلة الثالثة مرحلة تتميز بمراقبة الله تعالى وشدة الورع والتقوى في أسمى معانيها. وهذه ذروة سنام التجربة الدينية في الإسلام[1].

في ختام حديثنا عن مراحل التجربة الدينية في الإسلام كما بسطها الدكتور محمد خليفة حسن، نقول إن اختياره لحديث جبريل عليه السلام كان موفقا في بيان معالم التجربة الدينية في الإسلام كما بينها النبي صلى الله عليه وسلم. ونود أن نميز بين تجربة الاصطفاء التي وقعت لنبينا في غار حراء وانتقل من بعدها لبيان الإسلام لأهل مكة في أسواقهم ومنتدياتهم، وبين آحاد التجربة الدينية التي يمر بها المسلم حال قبوله للإسلام وترقيه في مدارج هذه التجربة من الإيمان إلى الإحسان، وهو في كل ذلك يتأسى بالنبي صلى الله عليه وسلم، مع اعتبار الفرق بين مقام النبوة ومقام المسلم المتبع للنبي صلى الله عليه وسلم.

وما يمكن ملاحظته أيضا، أن الدكتور محمد خليفة حسن قد اعتبر أن أولى مراحل التجربة الدينية للمسلم هي الإسلام؛ الذي يمثل مرحلة تدين فردي ظاهري، تتلوها مرحلة الإيمان؛ التي يتمكن فيها التدين من القلب، ثم مرحلة الإحسان التي هي مرحلة التقوى ومراقبة الله تعالى، والتي فيها يتجلى المظهر الاجتماعي للدين، والفرق بينها وبين المرحلة الأولى أنه لا يعتريه النفاق، بل يتطابق الظاهر مع الباطن.

ولعل الدكتور محمد خليفة في إطلاقه وصف التدين الفردي على المرحلة الأولى، والتدين الاجتماعي على المرحلة الأخيرة، القصد منه أن لا رهبانية في الإسلام، وأن المسلم في تدرجه وترقيه في مقامات العبودية لله، لا ينسحب من الحياة ولا يفقد صلته بالمجتمع كما هو في الأديان التي تقوم على الرهبنة والخلاص الفردي. ذلك أن المسلم في تجربته الدينية لا يسعى للخلاص من مشكلة، بل يتدرج لتحقيق كمالاته والفلاح في الدنيا والآخرة، مما يجعل بصره لا ينكفئ إلى ذاته، ولكن كلما حصّل كمالا من الكمالات زاد في سعيه إلى تحقيق الفلاح له ولمن حوله.

ولا نعتقد أن الدكتور محمد خليفة حسن يقصد تجريد أي مرحلة من مرحل التجربة الدينية في الإسلام من بعديها؛ الفردي والجماعي، كما تشهد لذلك نصوص القرآن والسنة، وكما يتبين من كتابات الدكتور محمد خليفة حسن نفسه، وإنما قصَد بالتركيز على الجانب الفردي في المرحلة الأولى والتركيز على الجانب الاجتماعي في المرحلة الأخيرة بيان موقع النفاق في إطار هذه التجربة الدينية المعقدة.

3. 5. خصائص التجربة الدينية في الإسلام:

يرى الدكتور محمد خلية حسن أن التجربة الدينية في الإسلام تتميز بمجموعة خصائص تعبر عن جوهر الإسلام، وهي؛ العقلانية، والاجتماعية، وتكامل الجانب الدنيوي والأخروي، والأخلاقية.

3. 5. 1. تجربة عقلانية[2]:

فهي تجربة دينية عقلانية، لأنها تقوم على المعرفة المعتمدة على الوحي الإلهي، ولذلك فهي خالية من الأسرار والغموض، وبعيدة عن الأساطير. ومن ثمة لا تحتاج في تحقيقها إلى وسيط ليكشف الأسرار والرموز. ولهذا لا نجد في الإسلام وظيفة رجل الدين، الذي يتوسط بين الإنسان والله، ويشرح أسرار العبادات. وهذه العقلانية ركيزة أساسية في الإسلام، إذ أن معنى "لا إكراه في

[1] حسن، **تاريخ الأديان**، ص 276-277.

[2] حسن، **تاريخ الأديان**، ص 280.

الدين قد تبيَّن الرشد من الغي" [البقرة: 256]، أن الاقتناع العقلي بمعطيات الإسلام أساس في قبوله والدخول فيه، لأن الإكراه يقع بسبب عدم الوضوح العقلي للحقيقة. فالتجربة الدينية في الإسلام، كما يرى الدكتور محمد خليفة حسن، تجربة عقلانية لأنها بيِّنة وبسيطة وخالية من الأسطورة، وليس من خصائصها السرية أو الغموض.

3. 5. 2. تجربة اجتماعية[1]:

وأما أنها تجربة اجتماعية، فإن الدكتور محمد خليفة حسن، يرى أن البعد الاجتماعي للتجربة الدينية للمسلم هو الغاية العليا. إذ المجتمع هو المكان الطبيعي للتجربة الدينية، مما ينفي عن التجربة الدينية للمسلم صفة الرهبنة، ويبعدها عن نظم الزهد والتقشف والعزلة التي تتصف بها ديانات أخرى في العالم.

ويؤكد الدكتور محمد خليفة حسن أن الدين هو العمل، وما العبادات إلا وفيها وشائج تربط المسلم بمجتمعه، بما لها من انعكاسات على المجتمع، سواء في ذلك الصلاة أو الزكاة أو الصوم أو الحج، فهي كلها لها صفة العبادة الفردية التي تتصل بالمعنى الاجتماعي سواء في أدائها في جماعة أو بتحقيقها مصالح جماعية. ونجحت التجربة الدينية في الإسلام في التوفيق بين الحياة الفردية والمجتمعية[2]، إذ تحتوي الفروض الدينية على الأساس الشخصي في العلاقة بين الإنسان والله، ثم تتبلور في الشكل الاجتماعي المناسب. فالتجربة الدينية في الإسلام، كما يرى الدكتور محمد خليفة حسن، تجمع بين التركيز على الفلاح الشخصي، وبين فلاح المجتمع من خلال هذا الفلاح الشخصي للفرد. إذ يبدأ المسلم تجربته الدينية معلنا بصفة فردية دخوله الإسلام، ثم يستقر الايمان في قلبه، ليرتقي إلى مرحلة ثالثة تتكامل فيها الجوانب الفردية والاجتماعية معا، في وحدة تجعل المسؤولية الفردية عن الأعمال هي المحركة للتجربة الدينية للدخول في مرحلة الإحسان، ذات البعد الاجتماعي.

3. 5. 3. تجربة دينية دنيوية وأخروية[3]:

في هذه الخاصية، يرى الدكتور محمد خليفة حسن أن التجربة الدينية للمسلم، تجربة شاملة، تغطي الحياة الدنيا والآخرة، وغايتها سعادة الإنسان فيهما. وبذلك فهي تجربة متوازنة، تأخذ في حسبانها حياة الإنسان في هذه الدنيا، ولكنها لا تهمل مآله في الآخرة.

وقد نجحت التجربة الدينية في الإسلام في تحقيق هذا التوازن بين البعد الدنيوي والبعد الأخروي، وذلك بالتوفيق بين الفردية والجماعية، وإحداث التوازن اللازم في التجربة الدينية بين تحقيق الشعور الديني الفردي وإشباع الحاجة الشخصية إلى الدين والتدين، وبين إشباع الحاجة للعيش في كنف جماعة دينية، يحيا معها فيؤثر فيها ويتأثر بها.

ومن بداية التجربة الدينية للمسلم إلى نهايتها، هناك تأكيد على الشخصية الدينية للفرد وعلى شعوره الديني الخاص، ومسئوليته الدينية الفردية. ومع ذلك، فإن فعله الديني موجه جماعيًا واجتماعيًا، ويتجلى ذلك، كما يرى الدكتور محمد خليفة حسن، في كل الفروض الدينية، فهي تحتوي على الأساس الشخصي في العلاقة بين الانسان والله ثم تتبلور في الشكل الاجتماعي المناسب.

---

[1] حسن، **تاريخ الأديان**، ص: 281.

[3] حسن، **تاريخ الأديان**، ص 281.

وخلاف تركيز معظم ديانات العالم على الخلاص الفردي، بتكريس العبادة داخل نظام ديني يقوم على العزلة الدينية من رهبنة وغيرها، فإن التركيز في التجربة الدينية في الإسلام على تحقيق نجاة المسلم وفلاحه على المستوى الفردي، وتحقيق فلاح المجتمع من خلال الفلاح الفردي، والربط بين التجربة الدينية الفردية والتجربة الدينية الجماعية في الوقت نفسه.

3. 5. 4. تجربة دينية أخلاقية[1]:

ويرى الدكتور محمد خليفة حسن أن التجربة الدينية في الإسلام تكسب المسلم خلال مراحلها الثلاث؛ الإسلام والإيمان والإحسان مجموعة من الصفات الأخلاقية، تجعل منه حال التزامه بها مثالاً أخلاقياً. ذلك أن القدوة في كل ذلك هو النبي صلى الله عليه وسلم، الذي لا انفصام في تجربته الدينية بين الدين والأخلاق. حيث وصفه الله تعالى قائلا: (وإنك لعلى خلق عظيم) [القلم: 4].

وبيّن النبي صلى الله علسه وسلم أن غاية دعوته استكمال البناء الأخلاقي للإنسانية، فقال صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". فربط الأخلاق بالدين جزء أصيل من خصائص التجربة الدينية في الإسلام، مما يجعل الأخلاق ذات مصدر ديني، تكتسب به صفة الديمومة والثبات والعالمية، ولا تخضع لرغبات الأشخاص وتحيزاتهم التاريخية.

4. خاتمة:

ما يمكن أن يختم به الباحثان هذه الورقة أن الدكتور محمد خليفة حسن قد وضع تصنيف الأديان شرطا منهجيا لازما لدراسة التجربة الدينية. فمن خلال تصنيف الأديان تتضح لنا خريطة توزعها وصلتها بالمضامين الدينية التي تحملها، مما يساعدنا على فهم التقاطعات والصلات المختلفة بين الأديان، كما يقودنا هذا التصنيف إلى دراسة التجربة الدينية عن وعي بجوهر الدين الذي ندرسه، والقيمة/ المضمون الديني المحوري فيه.

وقد طبق الدكتور محمد خليفة حسن هذا الشرط المنهجي، في دراسته للتجربة الدينية في الاسلام. وبخاصة أن الإسلام لم تتم دراسته دراسة موضوعية من قبل دارسي الأديان، بسبب الخلفيات الاستشراقية والتحكمات الدينية، التي هيمنت على حقل تاريخ الأديان في العصر الحديث.

ويمكننا القول إن من مبتكرات الدكتور محمد خليفة حسن، في مجال درس الظاهرة الدينية، هو جعله تصنيف الأديان مقدمة لازمة وشرطا منهجيا لدرس التجربة الدينية.

وقد أبدع في درس التجربة الدينية في الإسلام، عن طريق النظر في حديث جبريل عليه السلام، واستخلاص ثلاث مراحل لها، ومن تلك المراحل بيّن خصائص كل مرحلة على حدة، والترابط بين تلك المراحل.

[1] حسن، **تاريخ الأديان**، ص 282-283.

5. ثبت المصادر والمراجع:

إسماعيل، إبراهيم وبن لحسنن بدران. "تصنيف الأديان: رؤية نقدية من منظور علماء الأديان المسلمين"، **المجلة الجزائرية للدراسات الإنسانية**، المجلد 1، العـدد: 2، ديسمبر 2019، ص 27-54.

البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، دمشق: دار ابن كثير، ط1، 1423هـ/2002م.

البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، دار طوق النجاة، د. ت.

الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر. **الملل والنحل**، مؤسسة الحلبي، د. ت.

العامري، أبو الحسن. **الإعلام بمناقب الإسلام**، تحقيق: أحمد عبد الحميد غراب، الرياض: دار الأصالة للثقافة والنشر والاعلام، 1408هـ/ 1988م.

الفاروقي، إسماعيل. **التوحيد**، ترجمة د: السيد عمر، مدارات للأبحاث والنشر، الطبعة الثانية، 2014م

الفاروقي، إسماعيل راجي والفاروقي، لويس لمياء. **أطلس الحضارة الإسلامية**، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، ط1، الرياض: مكتبة العبيكان، 1419هـ/ 1998م.

النيسابوري، مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.

بن لحسن، بدران. "المادة المعرفية والمنهجية لدراسة الأديان في القرآن الكريم"، **مجلة الحضارة الإسلامية**، مجلد 21، عدد 1، جوان/يونيو 2020، ص361-394.

حسن، محمد خليفة. **تاريخ الأديان دراسة وصفية مقارنة**، الدوحة: مركز القرضاوي للوسطية، كلية الدراسات الاسلامية، جامعة حمد بن خليفة، 1434هـ/2013م.

حسن، محمد خليفة. "جهود إسماعيل الفاروقي في علم تاريخ الأديان"، **مجلة إسلامية المعرفة**، السنة 19، العدد 74، خريف 2013، ص 91-116.

Al-Faruqi, Isma'il Ragi and Sopher, David E. Historical Atlas of the Religions of the World. New York: Macmillan Publishing Co., Inc., 1974.

Cenkner, William. "Historical Atlas of the Religions of the World ed. by Isma'il Ragi al Faruqi, David E. Sopher (review)". The Thomist: A Speculative Quarterly Review, Volume 39, Number 4, October 1975, pp. 802-803.